الدين والدولة
والدنيا والآخرة فى الإسلام

يقول بعضنا — فى سبيل بيان فضائل الإسلام — إنه دين ودنيا ، أو دين ودولة ؛ ولكن هذا القول تعوزه الدقة ؛ وينأى عن الحق . فليس فى الإسلام عنصران يتناظران ، أحدهما الدين ، وثانيهما الدنيا ، أو أحدهما الدنيا والثانى الآخرة ، فالعلاقة بين الدين والدنيا ، كما قلت من قبل ، فى الإسلام من ألطف العلاقات ، وأخفاها على غير المؤمنين بالسلام ، المدركين لجوهر أحكامه . فالإسلام محيط شامل ، يضم الدنيا والآخرة ، ويتحدث عن كليهما ، ويبين كيف يفضى أحدهما إلى الآخر ، وكيف يتصلان ، حتى لتكاد تعجز عن تبين الحد الفاصل بينهما ، وحتى لتكاد تقول إنهما شىء واحد ؛ مع أن الدنيا فى حكم الدين عاجلة فانية ، والآخرة هى دار القرار . وإنى لأدعوك أن تتأمل — بداءة ذى بدء — فى جملة من الأحاديث ، أضعها تحت نظرك ، قبل أن نسترسل فى الكلام :

روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » .

وروى عن ثوبان قال : قال رسول الله : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » . وقال أبو قلابة ، وهو أحد رواة هذا الحديث « وبدأ بالعيال ، وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم ؟ » .

قال رسول الله : « فى وضع أحدكم (أى فى مائه) صدقة » . فقال أصحاب رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال رسول الله : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا :

نعم . قال : « كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » وقال رسول الله : لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وقال رسول الله أيضاً : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة» قيل فما يكفرها يارسول الله ؟قال : «الهموم فى طلب العيش» .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، و « علم ساعة خير من عبادة عشر سنين » .

فما الذى يستقر فى يقينك ، وأنت تطالع هذه الأحاديث البينة الناطقة الدلالة ، الواحدة بعد الآخر ؟ ألا ترى معها ، أن الدنيا عند المسلمين ليست قليلة القدر ، ولا هى بالمصاب الذى لا حيلة فى علاجه ، إلا بمحاولة نسيانه ، فالمسلمون مدعوون أن يحبوا حياتهم فى أشد حالات التيقظ والإقبال ، ودنيا المسلمين هى دنيا الأصحاء العقلاء الأقوياء المشغولين بهموم العيش ، وهى دنيا الأناقة والنظافة والرقة واللطف ، يكره فيها الصوت القبيح ، والرائحة الكريهة ، والجلسة المعوجة ، والحركة الجافة ، والصيحة المزعجة .

وأهم من هذا كله ، أن دنيا المسلمين ، ليست خارج الدين ، ولا تقع بعيداً عن أحكامه ، ولا هى كيان قائم بذاته ، فهى محكومة به خاضعة له ، تتحرك على قواعده ، وتسير فى نطاقه . والدين لا يدع منها صغيرة ولا كبيرة إلا ويصدر حكمها ، ويرسم مسارها ، ويبين غايتها ، وها قد رأيت أن رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، قد بين لنا أن العبادة فى الإسلام ، ليست وحدها الصلاة والصوم ، وأن الهموم فى طلب العيش تكفر من الذنوب ما لا يكفره الصيام ولا القيام ، وأن ثواب المرء يأتيه حتى فى أخص علاقاته ، وأبعدها عن تصور اتصالها بالثواب والأجر ، فكما « يثاب المرء على اللقمة إذا رفعها إلى فى امرأته » كذلك يثاب الرجل إذ يفضى إلى زوجته ، فنى دنيا المسلمين ، يؤجر الإنسان على كل جهد وعمل وسعى وحركة .

ولكن كيف نوفق بين هذه العناية البالغة بالحياة الدنيا ؛ وبرفع ثواب العمل فيها ؛ وتحصيل الرزق ؛ وطلب العلم ؛ والإنفاق على الأهل، على ثواب الجهاد فى سبيل الله ؛ بمعناه الخاص ؟ كيف نوفق بين هذه العناية الفائقة ؛ وبين آيات فى كتاب الله كثيرة مثل قوله تعالى : (تريدون الحياة الدنيا والله يريد الآخرة) ؛ (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) ؛ (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟).

والتوفيق بين هذه الأحكام التى تبدو متناقضة ؛ وهى متكاملة ، هو هذا النسج البديع الذى تفرد به الإسلام بين المذاهب والمبادئ ، فكل خطوة فى الحياه الدنيا مباركة ونافعة ؛ إذا اتصلت بالمثل الأعلى ، الذى يسميه الإسلام « الآخرة » فالحياة الدنيا إذا انفصلت عن هذا المثل ؛ وأصبحت غاية عند الناس ، أصبحت ملعونة ؛ واستحق محبوها الشقاء والعذاب ، ولذلك تتداخل الدنيا والآخرة تداخلا يجعلهما كلا لا ينفصل ، فكل عمل فى أولاهما ، له أثر فى أخراهما ، فالعمل الدنيوى لا يحكم عليه فى ذاته ، وإنما يحكم عليه بغاياته وأهدافه ، فقد يكون نافعاً وضاراً ومأجوراً أو منكراً فى آن واحد ، مثال ذلك أن رجلا مر على النبى ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق ما جعلهم يتحدثون فيه . قالوا : يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله فقال : « إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » .

فالدنيا هى الطريق المفضية إلى الآخرة ، والناس جميعاً ، لا يصلون إلى هذه الآخرة إلا عن طريق الدنيا ، وهذه الطريق — وإن كانت ممراً ومعبراً تكسب لاتصالها بالآخرة من الفضل والقيمة ما يجعل فرضاً على السائرين فيها أن يجعلوها طريقاً نظيفة أنيقة فسيحة ، تحفها الأزهار والرياحين إلى عالم يسوده السلام الشامل ، يعيش فيه الناس

إخواناً متحابين ، (فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة) ، (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاماً سلاماً) .

أما من يفضل الدنيا على الآخرة ، أى من فضل العمل ، أيّاً ما كان صغيراً أو كبيراً ، نافعاً أو ضاراً فقد استحالت دنياه إلى شىء لعين ، واستحال هو وأمثاله إلى مجرمين يحبون العاجلة ، ويذرون الآجلة ، وهؤلاء يقال لهم إن ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، أى أن (حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

ولما كانت الدولة فرعاً من الدنيا ، فهى تأخذ حكمها ، فليس فى الإسلام دين قائم بذاته ودولة تقوم إلى جواره ، فيتساويان أو يتناظران ، فالدولة فى الإسلام هى فرع من دنيا المسلمين ، وهى كدنيا المسلمين خاضعة للدين ، ومنبثقة منه ، وهى ليست كدولة غيرهم ، فهى للدين تقوم ، وبالدين تحيا ، وله تسعى ، وفى سبيله تفنى ، وليس لها من أغراض الدول الأخرى وأطماعها شىء ، وهى لا تقوم إلا حين يؤمن المسلمين ويكتمل إيمانهم ، ثم يجتمعون فى صعيد واحد ، وتظلهم راية واحدة ، وبالجملة هى دولة الإسلام ، غاياتها غاياته ، أو غايات الحياة كما يريدها الإسلام على الوجه الذى بيناه .

فدولة المسلمين أدنى مقاماً من عقيدتهم ، لأنها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل هذه العقيدة ، وقد حققت هذه العقيدة ، بحيويتها الرائعة ، وجاذبيتها الآسرة ، ما لم تحققه أكثر دول المسلمين منذ خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فقد انتشر الإسلام فى شرق إفريقيا وغربها واتسعت رقعته فى آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، على يد رجال تجردوا من كل نفوذ ، انتشروا فى الأرض يبتغون فضل الله ، فأدخلوا فى الإسلام أمماً وشعوباً ، يتزايد عددها ، ورقعتها ، على عدد ورفقة ما فتحته دول الإسلام جميعاً على تعاقب العصور .

هذه دنيا المسلمين ، ودينهم ، ودولتهم .